التعايش من الاختراق الثقافي إلى التثاقف الحضاري

د. بن معمر بوخضرة
جامعة تلمسان

إنّ مسألة **التعايش** بين الثقافات تفرض وجودها على أي شكل من أشكال الحوار بين الأديان والحضارات. لكنّ السؤال المطروح يتجسد في مفهوم إمكانية التعايش، وما الحظوظ المتوفرة ليكون هنالك تعايش حقيقي بين أفراد البشر؟.

تعرف البشرية اليوم حياة مشتركة رغم الاختلاف والتنوع والتمايز، فهناك المنافع، والمصالح المشتركة، ولا يمكن لأي نوع من أنواع البشر أن يختاروا لأنفسهم زاوية من زوايا الدنيا، فيقبعون فيها بعيدا عن الآخرين دون أي تأثير أو تأثر. ثم إن هناك تنوعا داخل كل نوع؛ فلو اختارت كل فئة جهة من الكرة الأرضية، فإنهم ليسوا جميعا متطابقين في كل شيء، بل يعيشون دوائر **التنوع المختلفة داخلهم**؛ قومي، او قبائلي، أو ديني، أو سياسي. وكذلك الحال لو انحاز المسلمون أو المسيحيون مثلا إلى ركن من الأرض، فإنهم يشتملون على تعددية في الأعراق، والقوميات، والمذاهب، والتوجهات. وذلك يعني أن تستمر حالة الفرز والاعتزال حتى تصل إلى أضيق الدوائر، وهذا لا يتنافى مع طبيعة الحياة والبشر.

ومع التطور العلمي والتكنولوجي الهائل في حياة الانسان، فإن المسافات قد ألغيت، والحدود قد تساقطت بين أبناء البشر، مما يفرض على الناس أن يتعايشوا مع بعضهم البعض، مهما تنوعت انتماءاتهم، و تعددت هوياتهم من اجل

مصالحهم المشتركة.

ولكن كيف يتحقق التعايش مع التنوع، ومع وجود اختراق ثقافي؟

الاختراق هو مصطلح امني يدل على وجود جسم غريب داخل جسد وكيان الأمة. دون أن يعرف كيف ومن أين دخل؟ وهذا ما يستدعي الاستنفار للبحث عنه. فقد قال المسرحي والشاعر الألماني هانز جوست في مسرحية «شلاتر» والتي أهداها إلى الزعيم النازي أدولف هيتلر؛ قال: «حين أسمع كلمة «الثقافة» أتحسس مسدسي...»[1]

لهذا كانت المسألة الثقافية من أهم المسائل التي ركز عليها الغرب في تعامله مع الشعوب الأخرى، سواء في مرحلة الاستعمار، أو ما بعد الاستعمار، معتمدا في ذلك على **أساليب** عديدة منها؛ الاتفاقيات والمعاهدات الدولية التي تمت بين الحكومات والهيئات التابعة للدول الصناعية الكبرى والدول النامية؛ كالنظام العالمي الجديد للأعلام، النظام الجديد للتجارة

العالمية، والنظام الاقتصادي العالمي الجديد، وغيرها من الأنظمة العالمية الجديدة. أصبحت هذه الهيئات في القرن العشرين تعرض أفكارها واستراتيجياتها في قالب آخر هو عولمة الثقافة حتى تلحق بزميلاتها في عولمة الاعلام، الاقتصاد، التجارة، البحار، والطيران وأصبحت بذلك الثقافة جزء لا يتجزأ من الاستراتيجية الاقتصادية للدول المتقدمة، ولا تعد وأن تكون الثقافة في هذه الاستراتيجية سلعة، تصنع وتلعب وتصدّر. مستغلة بذلك آليات صناعة الثقافة طوال القرن الماضي على تعليب الوعي وتنميط السلوك ومواد منهما لمتطلبات اقتصاد السوق وثقافته التجارية>>[2] . وهذا بالتحديد جوهر العولمة الثقافية الذي تسوقه ثقافة الصورة التي تستفيد ببراعة من المنجز التكنولوجي ستغمر كل ما هو ثقافي وتحول الثقافة إلى آراء في خدمة التقنية، ويعني ذلك الثقافة قد تصبح مجموعة من المهارات والتقنيات ومن ثمة يتراجع كل من لا يتمثل فعالية اقتصادية ما>>[3].

وفي هذا الجانب يرى المنظرون الغربيون بأن « التبعية للثقافة الغربية، والاقتداء بنموذج الغرب هو الطريق الأوحد الذي لا ثاني له، لاندماج الدول النامية في النظام العالمي الجديد، حتى ولو أدى ذلك إلى تهديد لهوية دول العالم الثالث، وإهدار لخصوصيتها.»[4]

ولقد أصبح يروج لهذه الفكرة من طرف الكثير من مفكري هذه الأمة تحت اسم؛ الحداثة والمعاصرة.

ولكن كيف تتم عولمة الثقافة، وكيف تؤثر على هوية الانسان العربي المسلم؟

إن الحديث عن **عولمة الثقافة** يقتضي الحديث عن قوانين ونصوص تعمل على تنفيذها الحكومات وفق معاهدات دولية، كتلك التي نجدها في النظام الاقتصادي العالمي الجديد، حيث يرى محمد الشبيني في كتابه «صراع الثقافة العربية الاسلامية مع العولمة»، بان» أية عولمة للثقافة هي في حقيقة الأمر، هيمنة لثقافة معينة على الثقافات الأخرى».(5) هذا التخوف الذي أبداه هذا المفكر له مشروعيته، إذا علمنا بأن الدول الصناعية لها من وسائل الاعلام القومية، والمقدرة الاقتصادية الكبيرة، والابداع، والابتكار، والحداثة في مختلف المجالات، ما يمكّنها من أن تهيمن على غيرها من الثقافات الأخرى. وهذا ما يطلق عليه اسم الاختراق الثقافي.

إن **تمظهرات** الاختراق عديدة ومتنوعة؛ منها تلك الطريقة التي عولج بها التراث الاسلامي في الغرب، فهي غالبا ما شكلت منذ البداية حاجزا لفهمه فهما سلبيا. ومن امثلة ذلك نجد تشويه شخصية عالم الاجتماعيات ابن خلدون؛ المفكر

والمؤرخ المسلم، الذي جرّد من بيئته الاجتماعية، والثقافية. حيث نظر إليه كما لو كان عبقريا غربيا، استبق قدوم الحداثة نفسها في وسط ثقافة بدائية. فقلما اعتبر الغرب أن ابن خلدون يتتمي إلى سلسلة من العلماء الكبار الذين نشؤوا في المنظومة الثقافية الاسلامية، مثل؛ ابن تيمية، الفرابي، والرازي، ومن قبلهم الشافعي وغيره.[6]

أما مفكرينا ومثقفينا الذين لم يتفطنوا لهذا الاختراق، فقد أساءوا التعامل مع النقل الحضاري، والثقافي الذي اصبح مجرد إعادة لتلك المحاولات التي قام بها محمد على؛ الذي ارتبط اسمه ببداية النهضة، ومن إعادة نقل المعارف الأوروبية إلى مصر، كما فعل رفاعة رافع الطهطاوي، او فارس الشدياق، عندما أبهرته العاصمة الفرنسية؛ فكتب كتابه المعروف «تخليص الإبريز في تلخيص باريس». لقد أصبحت الثقافة العربية الاسلامية منبهرة بالسيل المعرفي الغربي، وغالبا ما يتقمص المثقف العربي شخصية عالم غربي كل في مجال تخصصه، وينبهر أمام جاك دريدا، أو ميشال فوكو، أو ميشال دي سلرتو

إن الحديث عن الاختراق الثقافي يقودنا لامحالة إلى الحديث عن مفهوم آخر له صلة وطيدة بالموضوع وهو؛ **التثاقف الحضاري**؛ حيث اعتلت مسألة التثاقف/ المثاقفة أهمية كبيرة في مجال النقد الثقافي المقارن، خاصة مع نهاية القرنالعشرين وبداية القرن الواحد والعشرين. ويشمل التثاقف الظواهر التي تنجم عن الاحتكاك المباشر والمستمر بين جماعتين من الأفراد مختلفين في الثقافة، مع ما تجره من

تغيرات في نماذج الثقافة الأصلية لدى إحدى المجموعتين أو كليهما. وهذا يعني أن التثاقف/ المثاقفة هو تأثر الثقافات ببعضها البعض نتيجة الاتصال بين الشعوب والمجتمعات، مهما كانت طبيعة هذا الاتصال وأهدافه>>[7].

لقد أسهمت المثاقفة في ظهور الأنثروبولوجيا المقارنة في أمريكا وأوروبا، والتي نتج عنها ظهور الأنثروبولوجيا الثقافية. ففي الولايات المتحدة الأمريكية مثلا، نجد الباحثة مرجريت ميد الرائدة الأولى في قبض الاتجاه التواصلي التثاقفي، قد قامت بدراسة التعبير الثقافي لدى مجتمعات الهنود الحمر في أمريكا، ومدى تأثرها بالمستعمرين البيض من خلال احتكاكهم بهم.

التثاقف عملية معقدة تختلف حسب الأوضاع السياسية والتاريخية (استعمار/ حروب)، والاقتصادية، إضافة إلى الهجرات المتتابعة، والعناصر الحاملة (لغات/ أفكار/ إنتاجات) ثقافية، أو مادية. فتخلق من جهة عدم التجانس في الجماعة، ومن جهة أخرى تخلق التنوع الذي هو ضروري.

<< فالتثاقف هو الذي يحول المجتمعات المغلقة إلى مجتمعات منفتحة، فالتقاء الحضارات واختلافها وتداخلها هي عوامل تقدم>>[8]

فالثقافة يخلق عدم التجانس في الجماعة ومن جهة أخرى يخلق التنوع الذي هو ضروري.

هذه التثاقف هو الذي يعرف باسم الديمقراطية في شقه السياسي والمدنية في شقها الحضاري << إن المدنية هي الاستراتيجية تدبير العلاقات داخل نسق المدنية، فهي فن تقاسم العيش مع الغير وذلك بالعناية بالحياة المشتركة دوءا لأي تبخيس أو اقصاء أو تعديم لوجود الآخر>>[9].

والشيء الذي يستطيع أن يجمع كل الأنساق المكونة للدول أو الشعوب هو إمكانية تعايشها إذ << يظل سؤال التعايش منتجا أساسيا لفهم الواقعة الإنسانية وفهم التفاعل الإنساني داخل هذه الواقعة باعتباره مؤسسا لتلك العلاقة بالآخر.... ومن ثم فإن علاقة تفاعل الإنسان بالوجود وبالموجود أساسها العطاء، وبهذا المعنى تحدد الغيرية كعطاء بما هي نمط التعايش الأصيل المنفتح>>[10].

هناك حقيقة خفية، أصبحت اليوم ظاهرة للعيان، وبدأت تتشكل ملامحها منذ المنتصف الثاني من القرن 20، وهي تؤكد أن الهدف الحقيقي للعولمة هو السعي لإحداث «شكل للدولة الوطنية لفرض تذويبها في المنظومة الرأسمالية، وتوظيف الاعلام، ووسائل الاتصال في عملية الاختراق الثقافي، التي تمارسها العولمة بكل تمظهراتها المعاصرة.»[11]. مستعينة في ذلك بمختلف الوسائل، حتى تلك التي تبدو محرمة في قوانين الشرعية

الدولية، بحجة أن الأفضلية لصاحب القوة، وأن البقاء للأصلح. ولذلك فإن هناك شبه إجماع لدى جيل من المفكرين، والمثقفين في العالم على أن العولمة لا تعدو أن تكون « فعل اغتصاب ثقافي، وعدوان رمزي على سائر الثقافات.»[(12)]. ويأتي في مقدمة هذا العدوان الثقافي، الدّين باعتباره إسمنت الثقافة، وأهم شيء في الدّين هو جانبه الروحي. لذلك فإن العولمة تسعى إلى قتل هذا الجانب، من خلال تغليب الجانب المادي عليه، ومحاولة تشجيع البناء الفيزيقي الواقعي، على حساب الجانب الميتافيزيقي الغيبي. وفي ذلك أثر بليغ في صرف الأفراد عن الدّين، والتديّن. حتى أصبحت الفئة المتمسكة بالقيم الروحية تنعت بالتخلف، والجهل، والعيش في الفنتازيا، ومحاولة البعد عن الواقع، والهروب إلى حقول الغيب وتمظهراته.

أخيرا ومن هذه الثنائية العابرة من الاختراق الثقافي إلى التثاقف الحضاري، ندرك مبدأ الغلو الذي صبغ نظرة الغرب لذاته، وفي هذا الإطار يتّهم المفكر روجي جارودي الغرب بإضاعة الفرص في تحقيق التعايش بين الشعوب، من خلال تجاهله للحضارات الأخرى، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الشعوب النامية بحاجة إلى قراءة الفكر الغربي بمنهجية تتسم بالموضوعية التي تتعامل مع الواقع، والأحداث في محيط الواقع

المعاصر؛ قراءة تسعى إلى إدراك الكيفية التي يدرك من خلالها الغرب ذاته، حتى نستطيع التعرف على الوجه الآخر لحضارة الغرب، وحقيقة نهجها في النظر إلى الآخرين. ذلك المنهج الذي يتمحور حول الذات، ومن ثم إلغاء الآخر وتهميشه، في إطار المسيرة الحضارية للإنسان.

فإذا كان الغرب قد تحول إلى المطلق، فيجب أن يستعيد نسبيته، وتاريخيته، وزمنيته. وإذا كان الغرب يستغل المركز، فيجب أن يصبح مرة أخرى عنصرا واحدا ضمن عناصر اخرى تكوّن عالم الانسان. وإذا كان يعتبر نفسه عالميا، وعاما، فيجب أن نبيّن خصوصيته؛ أي أن الغرب يجب أن يصبح غربيا مرة أخرى لا عالميا. حيث يصبح التشكيل الحضاري الغربي تشكيلا حضاريا واحدا له خصوصيته، وسماته، تماما مثلما لكل التشكيلات الأخرى خصوصيتها، وسماتها. وبذلك يتحقق التعايش بين الشعوب، وتختفي الحروب، والصراعات.

الهوامش:

1- نقلا عن كتاب – محمد محمود شاويش – نحو ثقافة تأصيلية - الدار العربية للعلوم ناشرون – ط1، 2007 ص27.

2- علي ناصر كنانة – إنتاج وإعادة انتاج الوعي – عناصر الاستمالة والتضليل – منشورات الجمل – ط1 2009 ص39.

3- عبد الرحمن عزّي – دراسات في نظرية الاتصال – نحو فكر إعلامي متميز – مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1 2003 ص109.

4- محمد الشبيني – صراع العولمة مع الثقافة العربية الإسلامية- دار العلم للملايين ط1 يناير 2002 ص65

5- محمد الشيبني – صراع العولمة مع الثقافة العربية الإسلامية ص68.

6- ط عبد الرحمن – المنهج في قراءات التراث الإسلامي – ص88.

7- عبد الغني عماد – سوسيولوجي الثقافة – المفاهيم والإشكاليات من الحداثة إلى العولمة – مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ط1 2006 ص34.

8- مجد عبد العزيز الحياني – من المنغلق إلى المنفتح – ترجمة محمد برادة - مكتبة الأنجلو مصرية – القاهرة – ط2 1973 – ص12

9- عبد العزيز بز مسهولي – مبادىء فلسفة التعايش – افريقيا للنشر – المغرب ط1، 2012 ص138

10- المرجع نفسه ص187

11 - محمد سالم سعد الله – أنسنة النص – دراسات – معرفية معاصرة – جدار للكتاب العالمي – عالم الكتاب الحديث – ط1 2007 – ص37

12- المرجع نفسه ص 37